٧ ـ القرآن الكريم
فى كتاب النثر الفنى

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ،
ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »
[قرآن كريم]

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

طلع زكى مبارك بمقاليه كما يطلع الشيطان بقرنيه . لا يستجيب إلى خير ، ولا يبصر هدى ، ولا يدعو إلى رشد ، ولا يأتى إلا بإثم أو إفك أو ضلال

وبضاعة زكى مبارك كلام يلقيه لا يدرى أعليه يكون أم له ، بل يلقيه بظن أنه له فإذا هو عليه ، وهـذا من خذلان الله له ، ومن يحارب الله مخذول .

إن كان أحد عدو نفسه فذلك زكى مبارك . يبلغ منها بجهله وغروره ما لا يبلغ الخصم بعقله . يريد أن يخفى معايبها فيدل عليها ، ويريد أن يدرأ عنها فيبدى عن مقاتلها

لقد كتب يدافع عن نفسه فأمكن منها فى كل موقف من مواقف الدفاع :

أمكن منها حين صاح مرتين يستغيث بالدكتور طه حسين ، وما ذا يملك له الدكتور طه وهو يجمع على نفسه من الاعترافات ما يوبق أقله ويهلك

وأمكن منها حين اعترف متطوعاً مختاراً بأن فى كتابه آراء فى إعجاز القرآن أخطر من الآراء التى رويناها له . وهو يعلم أى آراء رويناها ، ويعلم أن ما كشفناه للناس من آرائه قد هدمه وهده ، ولا زال يعضه ويقض منه المضاجع . فأى نفع له فى أن يقول إن هناك فى كتابه ما هو شر وأخطر ، اللهم إلا أن يكون أراد أن ينسب غيره إلى الغباوة ، فنسب نفسه إلى الغباوة والحمق معاً . فإن النبى الأحمق هو وحده الذى يريد أن يدفع عن نفسه فيعترف عليها اعترافاً كهذا فيه كل التأييد لما قال الخصم ، وفيه بعد ذلك مزيد

وأمكن من نفسه حين أكد هذا الاعتراف بقوله إنه لو شاء لدل الخصم على تلك الآراء التى هى شر وأخطر ! ونحن نعرف من كتابه كل ما يخاف كما قد أنذرناه ، ومع ذلك فما الحاجة إلى تلك الآراء وقد دمغته أخواتها دمغة سيعرف بها ما عاش ؟ ألا يكفيه من الوسم ما بلغ العظم ؟ ألا يكفيه من الغل ما أحاط بالعنق ؟ أم هو يريد غلاً يأخذ منه بالمخانق حتى يكتم منه الأنفاس ؟ لينتظر فسيرى أنا نعرف منه ومما كتب ما لا يخطر له ببال .

وأمكن من نفسه حين زعم لنفسه الشجاعة والصراحة ونفاها عن غيره . وأى صراحة يدعى أو أى صراحة يبغى بعد الذى كان ؟ لقـد صارحناه رأينا فيه ، وأنصفناه إذ لم نقتصر على الادعاء كما يفعل هو مع الناس ، بل جئنا على الدعوى بالدليل

عرباً لا شرقيين ولا فراعنة » والحق أن المصريين لا يستطيعون أن يجردوا أنفسهم من ميراثهم الفرعونى القديم ، ولـكن هذا لا يحملهم على الازورار عن القافلة العربية والتخلف عن الركب الإسلامى العظيم ، ولا نستطيع أن نفرق بين النزعتين العربيـة والإسلامية ، فقد كان الإسلام على فطرته وبساطته يوم كانت الأمبراطورية الإسلامية عربية خالصة ، ولم تدخل المذاهب الملية المعقدة إلا حين دالت دولة العرب وخرج الأمر عن أيديهم ، وكان العرب كذلك أعرف الناس بالتسامح الدينى لأن القرآن الـكريم نزل بلسان عربى مبين ، فلما آل الأمر إلى الأعاجم جهلوا معنى التسامح فـكانت الحروب الصليبية الغاشمة

فإذا صحح الـكتاب المصريون نظرتهم إلى « الفرعونية » تحتم على الـكتاب العرب فى الأقطار الأخرى أن يصححوا نظرتهم إلى الفـكرة (الإسلامية العربية) على اعتبار أنها وحدة لا تتجزأ

بقى بعد ذلك أن يعالج الأدب مسائل الإصلاح الاجتماعى علاج الباحث المحقق ، فـكلنا ما يرح فى مثل هذه المسائل كالخاطب ليل ، على حين أنها من صميم الأدب الحديث

ولعل اتجاه الأدب العربى بعد الحرب القائمة يكون منصرفاً إلى الدعوة إلى زيادة الإنتاج القومى والأخذ بأسس الاقتصاد الصحيح . وهـذه كلها نقاط عجلة نرجو أن تسمح لنا الظروف بمعالجتها فى شىء من التفصيل .

(الرمل) منصور بهاب الله

لتمكنه من إبطال الدليل إن استطاع . واجهناه وجابهناه بالتهمة ودليلها وهو حي يرزق يستطيع أن يدفع عن نفسه : بالحق إن كان لديه ، أو بالباطل كما يفعل الآن . ألا يقارن هـذا بما فعل هو مع الشيخ مصطفى القاياتى رحمه الله ؟ زعم فى بعض ما كتب ما لم يكن ليجرؤ على زعمه لو كان الشيخ القاياتى حياً ، وما ليس يصدقه فيه أحد ، من أنه كان ـ أى زكي مبارك ـ وهو تلميذ يحضر لمصطفى القاياتى محاضراته وهو أستاذ ! ثم لا يستحيي زكي مبارك بعد هـــذا أن يحشر نفسه فى عداد الصرحاء الأشراف !

هكذا أمكن زكى مبارك من نفسه ، كما أمكن منها حين سمي ظهورى عليه بالحجة طغياناً ، وحين علل هذا الطغيان بعلمى أن الرقابة تمنع نشر المجادلة الدينية ! أما إنه الحق يطغى على الباطل ولؤمه ، لا الحق يمنع من ظهوره الرقيب . ومع ذلك فما حاجة زكى مبارك إلى المجادلة مطلقاً إن كان رأيه فى القرآن وإعجازه رأى المسلمين من لدن عصر النبى الكريم إلى اليوم ؟ ما حاجته إلى المجادلة الدينية التى يمنع منها الرقيب ، إن كان يمكنه التوفيق بين النصوص التى أوردناها عليه من كلامه وبين عقيدة المسلمين فى القرآن ؟ إن أحداً لا يعرف أن الرقابة تمنعه من تأويل كلامه إلى ما يطابق عقيدة المسلمين ويوافق إجماع علمائهم . أما الجدل الذى يراد به تبرير إنكار إعجاز القرآن أو إثبات أن القرآن من كلام البشر فنعم منع الرقابة منه ، ونعم عقاب القانون عليه . فهل هـذا هو الجدل الذى كان يريد زكي مبارك والذى لا يجد إليه السبيل ؟ إذن فقد أراد أن يعتذر عن نفسه فاعترف عليها حين أراد أن يحتمى هذا الاحتماء بالرقيب

ومع ذلك فالمسألة بيننا هى رأى زكى مبارك فى القرآن لا دليل زكى مبارك على ذلك الرأى . فإذا كانت الرقابة تمنعه من الجدال عن رأيه بالدليل فذلك شهادة منه ومن الرقابة أن رأيه ليس مما يجوز عنه الدفاع ، كما لا يجوز الدفاع مثلاً عن رأى زاعم لو زعم أن مصر لا يحق لها الاستقلال

إن هذا النبي الأحمق لا يستطيع أن يفهم أنه ينال من نفسه أكبر النيل بدفاعه عنها هذا الدفاع . إنه كالغريق فى الحمأة لا يزيده جهاده للخلاص منها إلا غوصاً فيها حتى يلتئم سطحها فوق رأسه ، وكان خيراً له ألا يقربها ، فإذ قد قاربها فقد كان أنجى له ألا يتورط فيها

ومحاولة الرجل الخلاص بالكذب أو بالمكابرة أو بالمغالطة والمهاترة لا تنفع ولا تجدى . فليس ينفعه مثلاً أن يلجأ إلى حيلته القديمة التى نبهنا إليها فى التمهيد ، فيسمى الأشياء بغير أسمائها أو بضد أسمائها ، كما يفعل من تسمية العلم جهلاً والجهل علماً ، أو الإسلام إلحاداً والإلحاد إسلاماً وإيماناً . فهذه الحيلة التى قد تجوز على الناس عند انبهام الأمر ، لا يمكن أن تجوز على أحد فى البسائط الواضحة والبديهيات المسلمة

وموضوع الخصومة بيننا وبين هذا الآفك هو فى دائرة البسيط البديهى ؛ دائرة المسلَّم المعروف من الدين بالضرورة ؛ دائرة الأمور التى هي فصل بين الإسلام وغير الإسلام ، بين المسلم وغير المسلم : دائرة إعجاز القرآن ، وأن القرآن كلام الله لا كلام البشر ، وأن الأنبياء والرسل ليس لهم من الدين إلا تبليغه ، وأن وحى الله إليهم ليس كهذا الذى يسميه الشعراء والمفكرون إلهاماً . هذه الأصول المسلَّمة عند المسلمين كافة ، المعلومة من الدين بالضرورة هى موضوع الكلام بيننا وبين زكى مبارك ، وموضوع الخصومة . وهو ينكرها ويكابر فيزعم أننا نفترى عليه الإلحاد

المسلمون كافة يقولون إن القرآن معجز ، ويفهمون من إعجازه إعجاز الأسلوب قبل كل شيء ، وهو يقول إن القرآن غير معجز وإن أسلوبه أسلوب عادى يقدر عليه جميع الكاتبين . ثم يزعم أنه قد أقنع المثقفين بإعجاز القرآن !

إن إنكار إعجاز الأسلوب يستتبع حتماً إنكار إعجاز المعنى إلا فى المواطن التى يكون فيها المعنى من النبوءات التى تحققت بالفعل ، أو يكون من العلميات التى يحققها البحث العلمى على مر الزمان . فكثير مثلاً من قصص القرآن كان معروفاً ، إن لم يكن للعرب فللنصارى واليهود فى التوراة والإنجيل . ومن السهل على المكابر أن يدعى أن محمداً درس أو أن محمداً سمع . وقد قيل ذلك بالفعل . قالوا فيما حكى الله عنهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » . حتى لو لم يكن القصص معروفاً لسهل على المكابر بعد معرفته أن

يدعى أنه كان غير مجهول ، بل لصعب جداً على غير المكابر أن يطمئن إلى أنه لم يكن معروفاً من قبل ، ولاستحال إثبات ذلك إثباتاً يرتفع معه كل شك ، إن لم يكن فى عصر النبى ففى ما بعد عصر النبى من العصور . فما الذى حال بين المنصفين من العرب فى زمن النبي صلوات الله عليه وبين مثل هذا الشك فى إعجاز القرآن وفى رسالة النبي ؟ إعجاز الأسلوب ! إعجاز الأسلوب حال بينهم وبين الشك

إن المعنى بعد أن صار معروفاً لهم كان يمكنهم التعبير عنه بالطبع ، ولكن لا بأسلوب القرآن ولا بشيء يشبه بأسلوب القرآن . وهذا بعض وجه الحجة عليهم فى مثل قوله تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » . وسنعود فيما نستقبل من الكلمات إلى موقف صاحب الكتاب من هذه الآية بالذات كمثل ناطق بسوء فهمه وخلطه وإحالته حين يعرض للقرآن .

أما الآن فيكفى أن ننبه إلى أن التحدى فى الآية الكريمة بقوله تعالى (مثله) وفى غيرها من الآيات إنما هو تحد بالأسلوب قبل كل شيء ، لأنهم بعد أن سمعوا بعض السور وعرفوا معناها كانوا يستطيعون أن يزعموا أن المعنى ملك للجميع ، أخذوه هم كما أخذه محمد ، ويعبرون عن المعنى بأى أساليبهم يرون أنه يقوم لأسلوب القرآن . ولو فعلوا وكان ذلك ممكناً لسقط التحدى به إلى الأبد . لكنهم لم يفعلوا ولم يكونوا ليفعلوا ، لأنهم كانوا إزاء أسلوب لا يمكن تحديه ، لا كما يزعم هذا الأفاك الأحمق إنه أسلوب فى مقدور جميع الكاتبين

فالذى ينكر إعجاز الأسلوب مثل صاحب النثر الفنى يلزمه حتماً أن ينكر إعجاز بعض القرآن على الأقل كالقصص القرآنى أو بعضه ، أسلوباً ومعنى ، لأنه يستحيل عليه وقد أنكر إعجاز الأسلوب القصصى أن يزعم أن القصص نفسه معجز بالمعنى أو بالروح ، كما يزعم أنه أقنع المثقفين بهذا النوع من الإعجاز فى القرآن . وإذا سقط التحدى بقصص القرآن سقط التحدى بسورة من مثل القرآن ، لأن كثيراً من قصص القرآن سور بأسرها ، أو فى قدر سورة من غير القصص ، وإذن يسقط التحدى بالقرآن بأسره ، لأن الله سبحانه حين تحدى عباده بسورة من مثل القرآن لم يقيدهم بأى قيد فى اختيار السورة . فلو اختاروها سورة قصص ، أو جاءوا بقصص فى قدر سورة ولو قصيرة من غير القصص ، وكان ما جاءوا به يلتبس بالقرآن من حيث الأسلوب ، لكانوا قد كسروا التحدى وبطلت معجزة القرآن بين العرب ، فضلاً عمن جاء بعدهم ممن ليس له بصرهم بالفصاحة والبيان

فانظر فى هذا وتأمله جيداً وحكم عقلك ومنطقك ما شئت ، تجد أن إنكار إعجاز الأسلوب يؤدى حتماً إلى إنكار الإعجاز كله فى القرآن كله ؛ فإذا تبين لك هذا فاحكم حكمك على صاحب النثر الفنى ، منكر إعجاز أسلوب القرآن ومدعى إقناع المثقفين بإعجاز القرآن من ناحية الروح !

إن الرجل يلعب ويلهو بالخطير العظيم من الحق ، ويكذب ويأفك على الناس وعلى الله رب الناس . لكن لا عجب فهو يخبرنا أنه لا يخاف الله إلا تأدباً ، فهو لا يستشعر خوفاً حقيقياً منه سبحانه . فماذا يمنعه من الكذب والافتراء على الله ؟

على أننا لم نفرغ بعد من هذا الأفاك

محمد أحمد الغمراوى

وزارة الدفاع الوطنى

تقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ٢ أغسطس سنة ١٩٤٤ عن توريد أسلاك ومفصلات وخلافه ، والشروط بإدارة المشتريات والعقود وثمن النسخة ٢٥٠ مليما ٢٣٥٢